أثر الفلسفة اليونانية في البلاغة العربية

د/فؤاد زرواق
جامعة سطيف2

تاريخ الإرسال: 2017/07/16 تاريخ القبول: 2017/10/22

الملخص:

تُعتبر البلاغة العربية - كما يرى أرسطو- فنا خطابيا بامتياز، لأنها تستخدم أدوات حجاجية واستدلالية ومنطقية للتأثير في الأخر. فاعتبرت بذلك عُدةً منهجية يتزود بها كل من الكاتب والخطيب في حواراته السياسية والقضائية والفلسفية والأدبية والنحوية. وتمحور عمل البلاغة العربية قديما في جهود على شاكلة تحديد الإعجاز القرآني ، والإبانة على حدود الحقيقة والمجاز في الكلام، ومحاولة رصد مفاهيم الصدق والكذب.

ولكن البلاغة العربية- خلال تكوينها الأول- لم تكن بمعزل عن العديد من العلوم التي عاصرتها في الزمان فاستفادت منها وبأقدار مختلفة ومتباينة، ومنها الفلسفة التي تشربت من معينها وتمثلت لمفاهيمها كالاقيسة والحدود و التعاريف .

وإذا كانت الفلسفة هي البحث الحر العميق- الذي يدرس الجمال والمنطق والشعور والنفس والأخلاق- فان البلاغة هي دراسة فنون هذه المعارف وبحث الجمال فيها.

لذلك تروم هذه الدراسة محاولة الكشف عن الإفادة التي أحرزتها البلاغة العربية من الفلسفة، وكيف كُرست تلك المفاهيم في خدمة بلاغتنا، وهل أعطت ثمارا ملموسة في مجال الدرس البلاغي العربي . راجين من المولى عز وجل في ذلك التوفيق انه مجيب.

<u>كلمات مفتاحية:</u> البلاغة العربية، المنطق، التجديد، أثر الفلسفة، أرسطو.

Abstrat:

Arab rhetoric - as Aristotle sees it - is a rhetorical art of excellence, because it uses the tools of the pilgrims, the evangelical and the logical to influence the other. And thus considered several methods provided by the writer and Khatib in his political dialogues, judicial, philosophical, literary and grammatical. The work of Arabic rhetoric was in the past in efforts such as defining the Quranic miracle, and the recognition of the limits of truth and metaphor in speech, and an attempt to monitor the concepts of truth and lies.

But the Arabic rhetoric during its first composition was not isolated from

many of the sciences that it experienced in time and benefited from different and different destinies, including the philosophy that it drank from one of its concepts, such as borders, borders and definitions.

If philosophy is a free and profound research - which studies beauty, logic, feeling, soul and ethics - rhetoric is the study of the arts of this knowledge and the search for beauty in it.

Therefore, this study aims at revealing the benefit of the Arabic rhetoric of philosophy, and how these concepts were enshrined in the service of our communication, and whether it gave tangible results in the field of the Arabic rhetorical lesson. We hope from the

مقدمه:

تعتبر البلاغة من العلوم المتصلة باللغة والتي من خلالها يمكن الحكم على الأعمال الأدبية بالتقويم إمّا بالحسن وإمّا بالقبح والرداءة، فهي لاشك روح الأدب، والأدب مادتها.ونشأت عند العرب في رحاب الدرس القرآني المبارك، فانبرت على آياته الكريمة تدرسها وتحاول أن تُبيّن مكامن الجمال في عباراتها. ولعل ما جاء في القرآن الكريم من آيات بليغة تحدّت العرب لدليل على استحالة مُجاراته، ومن ذلك أنّ الوليد بن المغيرة سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن الكريم فقال:" والله لقد سمعت من محمد كلاما ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوةً، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لَمُثمرٌ وإنّ أسفلهُ لَمُغدقٌ".

ولا شك أن البلاغة علم لا يختص به العرب فقط دون غيرهم من الأمم، ولا هي خاصة بطبقه معينه دون طبقه، أو بلسان دون لسان. فنجد اليونان مثلا سعوا- من خلال اجتهاداتهم- إلى الرقي ببلاغاتهم من خلال البحث في مسائلها وتطويرها، كما سعى العرب إلى تطوير بلاغتهم من خلال تنقيح الكلام والرقي به إلى درجه الفصاحة العالية.

ولعل الفلسفة والمنطق اليونانيين كانا من أهم العلوم التي داخلت البلاغة في شكل إسقاطات لمبادئ العلمين من قبل علماء عرب، ونقاد تأثروا بالثقافة اليونانية بعد الاحتكاك، والترجمات التي حدثت في نهاية القرن الثاني هجري؛وبداية القرن الثالث الهجري مع بن قتيبة، والجاحظ، وقدامه وغيرهم.

لذلك نحاول في هذه الدراسة تسليط الضوء على ما أحدثه ذلك الاتصال بين الثقافتين في البلاغة العربية، وإلى أي حد بلغ تأثر البلاغة العربية بالثقافة اليونانية؛؟ وهل

هذا الاتصال كان ايجابيا - خادما لبلاغتنا-؟أم هو مجرد تعسف في حق بلاغتنا بتطويعها المجحف لقوانين لا تخدمها؟ متعرضين في ذلك لمفهوم البلاغة والفلسفة، ومعرجين على آثار الفلسفة اليونانية في نقدنا بنموذج هو المدرسة الكلامية؛ ثم بناقد معروف في هذا الباب وهو: السكاكي،لنبين في الأخير موقفنا من المنطق الأرسطي،وهل كان فائدة للبلاغة العربية؟أم جناية أركست بلاغتنا وعطلتها؟ والله نسال في ذلك التوفيق انه مجيب.

في مفهوم البلاغة:

من التعاريف التي يجب الوقوف عليها في مفهوم البلاغة ذلك التعريف الذي ساقه الجاحظ عن مفهومها عند أمم مختلفة يقول: " قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفه العقل من الوصل، وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام واختيار الكلام. وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتصاد عند البداهة والغزارة يوم الإطالة. وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة"(1).

فإذا أردنا أن نلخص مفاهيم البلاغة عند كل أُمه- ومن خلال هذا القول للجاحظ - فهي: تدور حول مجموعه من المفاهيم وهي: علم البيان؛ علم البديع ، و محاسن الكلام.

والبلاغة عند العرب لم تكن علما واضحًا و قائماً على قواعد وأسس، وإنما كانت عبارة عن معارف لغوية كامنة ومتمثلة في كلام العرب بالتوارث " فالمتكلم من العرب كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيه، يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطبتهم وكيفيه تعبيرهم عن مقاصدهم، كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلفها أولا ثم يسمع التراكيب بعدها فيلفها كذلك إلى أن يصير ذلك ملكه وصنعة راسخة ويكون كأحدهم"(2).

إن العرب و بالرغم من عدم ظهور البلاغة كعلم واضح عندهم "ونقصد من ذلك العصر الجاهلي إلا أنهم تفطنوا إلى ما يمكن أن يحمله الكلام من سقطات، كما أشاروا إلى جوانب المعنى والجودة فيه، ولا أدل على ذلك من تلك التصنيفات التي كانوا يضعون فيها الشعراء فقالوا" فلانٌ يخطئ في جوابه، ويميل في كلامه، ويناقض في خبره، ولولا أن هذه الأمور قبل كانت تكون في بعضهم دون بعض لما سمي ذلك البعض والبعض الآخر بهذه الأسماء"(3).

إن مفهوم البلاغة التي تقوم على معاني الإيصال، و بلوغ النهاية من خلال تحقيق الفائدة وبلوغ الكفاية الموضحة للكلام يكون من خلال القدرات اللغوية التي يتمتع بها المتكلم في تعبيراته وكلامه. واللغات حسب ابن خلدون" ملكات شبيهه بالصناعة إذ هي: ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودتها وقصورها بحسب الملكة ونقصانها. وليس ذلك بالنظر إلى المفردات وإنما هو بالنظر إلى التراكيب، فإذا جعلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذ الغاية المقصودة من إفادة مقصودة للسامع، وهذا هو معنى البلاغة"(4).

ولعل الحوار الذي دار بين (معاوية بن أبي سفيان) و(صحار العبدري) كان الإرهاصات الأولى لمفهوم البلاغة منذ العصر الجاهلي. قال أبو معاوية ما هذه البلاغة التي فيكم؟ قال:شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا. قال معاوية: ما تعُدّون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز. قال معاوية: وما الإيجاز؟ قال: أن تجيب فلا تبطئ، وتقول فلا تخطئ"(5).

من آثار الفلسفة في البلاغة العربية (المدرسة الكلامية):

لاشك أن البلاغة بعلومها المعروفة قد نشأت في رحاب الدرس القرآني بغاية الإبانة على الجانب الجمالي والفني الذي تحتويه الآيات القرآنية، وروعة وسحر البيان الذي انتظمت به حتى تكون هذه الآيات أمثله ونماذج للاستشهاد في ما بعد.

لقد تضافرت جهود كل من: المفسّرين واللّغويين، والأدباء والمتكلمين، والنقاد لمحاوله استجلاء الإعجاز في القرآن الكريم، فظهرت بذلك طوائف متعددة واتجاهات مختلفة أفرزت مدرستان بلاغيتان هما: المدرسة الأدبية، والمدرسة الكلامية" أو طريقة العرب البلغاء وطريقه العجم وأهل الفلسفة"(6).

والمدرسة الكلامية هي المدرسة التي اشتهرت بها مناطق تتميز باختلاط عرقي جنسي بين الفرس والأتراك، حمل لوائها (أبو يعقوب السكاكي) منذ أواخر القرن السادس الهجري إلى غاية العصر الحديث. وتميزت البلاغة في هذه المرحلة بطغيان الروح والأفكار الوافدة من الأمم الأخرى فأثقلت البلاغة بالمنطق والفلسفة وعلم الكلام. "وتحولت البلاغة

المسكينة إلى حدود وتعريفات وشروح وتلخيصات أبعد ما تكون عن روح البلاغة وما يجب أن يكون فيها من روعه وجمال"(7).

إن غاية ما ترمي إليه البلاغة هو الإبانة عن الأحاسيس الفنية، ومحاوله صقل الأذواق وتعرية مكامن الجمال في النصوص الأدبية والإبداعات عموما. ولكن البلاغة مع المدرسة الكلامية اهتمت أساسا بالتعريفات والحدود والتقسيمات المنطقية من خلالها شروطها فالتعريف- مثلا- يجب أن يكون" جامعاً مانعاً، واستعمال الطريقة الفلسفية المنطقية في تحديد الموضوعات وتقسيمها وحصرها،والاستعانة بالألفاظ والمصطلحات الفلسفية والمنطقية في تناول الموضوعات البلاغية"(8).

ولاحظ الشيخ أمين الخولي في كتابه (فن القول) جفاف البلاغة التي تدعوا إليها هذه المدرسة من خلال غياب الذوق فيها، والذي هو الأساس في التفريق بين الكلام الجميل والرائع وبين غيره. فهذه المدرسة تمتاز بمجافاتها الأحكام النظرية وعدم الاحتكام إلى المنطق الميزاني، والاعتبار العقلي، والشعور بأن في الإنسان من قوى الحكم شيء غير هذا كله"(9).

لقد كرست المدرسة الكلامية المظاهر المنطقية والفلسفية في الأبحاث البلاغية، وإطلاق الأحكام العقلية على الموضوعات الوجدانية، وكذا عدم العناية بالناحية الفنية في إدراك التراكيب وخصائصها، وكذا في استعمال المقاييس الحكمية والخلقية والعقلية في تقدير المعاني الحديثة(10).

ولا يخفى ما للمعتزلة من ثقافة عربيه راسخة استطاعوا تدعيمها بما وصل إليهم من الثقافات الخارجية لا سيما المنطق والفلسفة "ووجه الاستفادة من الفلسفة والمنطق أنها هيأت عقولهم للبحث الكلي في الأشياء ونظّمت طرائق البحث لديهم تنظيما دقيقا ، وجعلتهم أقدر على استخراج الحجج واستنباط الآراء"(11).

ولكن صنيع هؤلاء النقاد لم يسلم من الانتقاد، فهم في رأي نقاد من أمثال طه إبراهيم يمثلون الاتجاه المتأثر بثقافات أجنبية ومنهم: ابن قتيبة مثلا وكتابه نقد الشعراء، وكذلك قدامة بن جعفر صاحب كتاب نقد الشعر. فكل من (ابن قتيبة) و(قدامة بن جعفر) حاولا تحويل النقد الأدبي إلى علم من خلال إخضاعه لقواعد المنطق ومقاييسه، ولكنه مع ذلك اعترف (لابن قتيبة) بتركيزه على الذوق حينما يقول:" فمنهم من استعان في

نقده بطرق العلم فقد كان رأساً في العربية مؤمنا بالذوق الأدبي مقويا للصبغة القديمة في أكثر ما جاء به"(12).

أمّا إعابته على (قدامة بن جعفر) تحكيم التقسيمات المنطقية فهو حينما وضع لها تعريفا محصورا في ثمانية تقسيمات بنى عليها نقده للشعر عموما، وهي في نظره لا تصل إلى روح الشعر (13).

وذهب (مصطفى عبد الرحمان إبراهيم) في كتابه:النقد الأدبي القديم عند العرب إلى اعتبار كل ما جاء به نقاد القرن الثالث ليس من المُخترع العربي في تلك الفترة بل هو من المنقول اليوناني " فلم يكد يشرف هذا القرن على نهايته حتى كان للعرب كتب بأسرها في علم البلاغة وفي النقد الأدبي نقلت عن اليونان(...) وتلك هي الذهنية الرابعة التي جدت في النقد وهي أجنبية محضة لا تمت بسبب إلى القديم ولا ترتكز إلى أصل من أصوله المعروفة وإنما يستمد كل شيء من اليونان وتجتلب له الشواهد اجتلابا عنيفا من النقد الأدبي"(14).

لقد عمدت هذه المدرسة إلى إصدار أحكام عقلية على المسائل البلاغية، واقتباس مظاهر منطقية وفلسفية وهي تتميز" بالجور على الناحية الأدبية وظواهر مختلفة ومنها الإقلال من الشواهد الأدبية وعدم العناية بالناحية الفنية في إدراك خصائص التراكيب (...) فهم يحتكمون في تقويم المعنى الأدبي إلى اعتبار عقلي فلسفي)(15).

من نماذج المدرسة الكلامية (السكاكي):

هو سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن علي السكاكي الخوارزمي.(16). ولد سنه 555هـ بخوارزم وتوفي بها سنة626هـ(17). وعُرف عن السكاكي أنه لم يكن من أصحاب الأدب والفن عموما لأنه نشأ في بيئة السكاكة أي الذين يشتغلون بالسكاكة، ولكنه توجهه إلى العلم بالطب وتفرغ له فانهال على الفلسفة وعلوم المنطق للدراسة والتعلم متنها كذلك للفقه وعلوم اللغة والبلاغة فاشتهر أيّما شهرة في عصره.

وللسكاكي العديد من المؤلفات والمصنفات منها مفتاح العلوم.يقول فيه ياقوت الحموي" متكلم فقيه متفنن في علوم شتى،و هو أحد أفاضل العصر الذين سارت بذكرهم الركبان"(18).

و مفتاح العلوم(للسكاكي) كتاب أبان فيه على دقه ورويّة في التبويب والتقسيم وهو من أهم ما صنف (السكاكي) وقد قسمه إلى ثلاثة أقسام هي: الصرف والنحو والبلاغة؛ على أنه يعتبر من الواجب على المتصدي لعلم المعاني والبديع الإلمام بالعروض والقوافي"(19). وبذلك اشتمل المفتاح على علوم الصرف والنحو والمعاني والبيان والمنطق والعروض والقوافي"

وعلى حد قول شوقي ضيف فقد"اكتسب كتاب المفتاح للسكاكي شهره كبيرة من خلال القسم الثالث فيه و المتعلق بعلم المعاني والبيان"(20).

ولكن السكاكي ارتضى طريقه جديدة لم تكن موجودة من قبله إذ أصبح للمنطق والفلسفة سلطان مطاع لا يرد له قول،واستعان بأهم مقولات المناطقة والفلاسفة من تجريد وتفريع و تقسيم وتعليل.

على أنه وإن تجاوز سابقيه من ناحية الاستعانة بتلك العناصر كالجرجاني والزمخشري، فإنه من ناحية ثانية لم ينتبه إلى أنه ضيع أمور تتعلق بالذوق والطاقة الحسية. يقول الخطيب القزويني:" وهو وإن فاق عبد القاهر الجرجاني في التقسيم والتبويب، وتقريب الأحكام فلم يدرك شأوه لطف الحس وصفاء الديباجة وبراعة الكلام"

إن التزام السكاكي ومحاولته تصنيف البلاغة العربية وإخضاعها لقوانين تشبه تلك التي تحكم النحو وهي" قوانين تسبك في قوالب منطقية جافة أشد ما يكون الجفاف"(21). جعله ينحرف بها عن الطابع الجمالي المطلوب في مثل هكذا علوم؛ لتبيان أوجه الجمال، ولعب لعبة الكشف مع الألفاظ والعبارات والتعابير التي تتخفى وراء الأساليب البارعة للكتّاب الحاذقين.

وبدأ (السكاكي) في الجزء الثالث من المفتاح بتعريف علم المعاني والذي قدمه على علم البيان، لأنه منه بمثابة الأصل للفرع. يقول: " لمّا كان علم البيان أسبق من علم المعاني، لا ينفصل عنه إلا بزيادة اعتبار، وجرى منه مجرى المركب من المفرد لا جرم آثرنا تأخيره، فعرف علم المعاني بأنه: تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره"(22).

فعلم المعاني علم يُعرف به أحوال اللفظ العربي التي لها يُطابق مقتضى الحال، ونظيره – على حد قول بهاء الدين السبكي- صاحب كتاب (عروس الأفراح) : " علم تعريف الطبّ بأنه علم يُعرف به أحوال بدن الإنسان من جهة ما يصح ويزول عنها لتحفظ الصحة"(23).

وعقد (السكاكي) فصلا في ضبط علم المعاني والكلام عليه، وبدأ بتمهيد تكلم فيه على أن مقتضى الحال يختلف – وبتفاوت – من متكلم إلى آخر، وهو في ذلك ينبّه إلى ضرورة تعلم علم من علوم المناطقة والفلاسفة وهو: علم الاستدلال بالإضافة إلى علم العروض. وفي هذا يقول (السكاكي)" إن التعرض لخواص تراكيب الكلام موقوف على التعرض لتراكيبه، لكن لا يخفى عليك- حال التعرض لها منتشرة- فيجب المصير إلى إيرادها تحث الضبط بتعيين ما هو أصل لها وسابق في الاعتبار"(24).

وحينما استهل (السكاكي) حديثه عن البيان لم يُورد تعريفا له؛ لأنه أدرجه حينما عرّف علم المعاني. ولا بأس أن نُورد له تعريفه لعلم البيان بالعودة إلى ذلك في تعريفه لعلم المعاني يقول " وأمّا علم البيان فهو معرفة إيراد الكلام في طرق مختلفة بالزيادة في وُضوح الدلالة عليه وبالنقصان، يحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه"(25).

على أن السكاكي يقسم الدلالات إلى قسمين منها ما هو وصفي ومنها ما هو عقلي. فدلالة اللفظ في الأصل قد تكون لما وُضع له في أصل الاتفاق وقد تكون لغير ذلك، وهو عندما يتكلم عن اللزوم الذهني لا يشترط فيه إجازة العقل له بثبوته فيه" بل يكفي أن يكون ما يثبته اعتقاد المخاطب إمّا لعرف أو لغيره"(26).

ولمّا انتقل السكاكي للفن الثالث وهو علم البديع، فهو مما يُصار إليه من الفنون في تحسين وجه الكلام.وعلم البديع هو" علم يُعرف به وُجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة وضوح الدلالة"(27).

وعلم البيان ضربان: ضرب يرجع إلى المعنى، وضرب يرجع للفظ. فأمّا ما يختص بالمعني فمن ذلك: المطابقة، المقابلة، والمشاكلة، والجمع بين المتشاكلات، الإرصاد أو التسهيم، والمزاوجة واللف والنشر، والجمع والتفريق، وتأكيد المدح بما يشبه الذم

والتوجيه، وسَوْقُ المعلوم مساق المجهول، والاعتراض والإشباع. وأمّا ما يختص باللفظ فمنه: التجنيس والاسجاع والترصيع.

لقد كتب للسكاكي أن يعيش في عصر طغت فيه الفلسفة والمنطق فكانت الأساليب العربية" تُقاس بحدود المنطق ورسومه، ولا يقام لها وزن إن لم يُجَلّهَا بميسمه"(28)وهو ما فرض على السكاكي أن يحشو كتابه بذلك الكم الهائل من المصطلحات الشائعة عند المناطقة والمتكلمين مثل: الخيال والوهم و ولعقل والإدراك والوجدان.

لقد حاول السكاكي- في عمله على التقسيمات والحدود والتعريفات-- حاول- وضع قوانين مثل التي تضبط علم النحو، ولكنه لم يكن يدري أن ذلك كله" إيذانا بتحجر البلاغة العربية وجمودها جمودا كبيرا إذ ترسبت في قواعد وقوالب جافة وغدا من العسير أن تعود إليها حيويتها ونضارتها القديمة"(29).

ولكن كما تمت الإشارة إليه مُسبقا فإن الكثير من الباحثين يشهدون للسكاكي بالتفوق والبراعة على غرار ما قاله (ياقوت الحموي) من أن" السكاكي علّامة إمام في العربية والمعاني البيان والأدب والعروض والشعر"(30).

وما شهادة (ابن خلدون) فيه إلا إقرار بمكانته حيث يقول" ثم لم تزل مسائل الفن تكتمل شيئا فشيئا إلى أن محّص السكاكي زبدته، وهذّب مسائله ورتب أبوابه ... وأخذ المتأخرون من كتابه ولخّصوا منه"(31).

إن فضل السكاكي في تبويب وتقسيم علم البلاغة- الذي تم على يديه فقط - لا ينكره إلا جاحد نعمة وفضل، وبذلك فقد رسم المسارات التي اتبعها من جاء بعده. ولكن (للسكاكي) ميزة لم تكن موجودة في غيره من المشتغلين بهذا الميدان وهو أنه كان متأثرا بالمنطق وعلوم الكلام الفلسفية والنحوية، لذلك لم يستطع مفتاحه أن يُبعد هذا التأثر في عمله، وطغت عليه الحدود والتقسيمات والتفريعات، وتاهت البلاغة في متاهات المنطق والفلسفة معه.

إن هذا الكلام ليس اتهاما ولا انتقاصا من مجهودات (السكاكي) فهو كما قال (شوقي ضيف) " استطاع أن يُسوي من نظرات الجرجاني والزمخشري علمي البيان والبديع"(32).

وما كثرة الشُّراح الذين تناولوا مفتاح العلوم لدليل على استغلاق فهمه، واستحكام صنعته كل ذلك استدعى النظم فيه، وفي كل مرة من زاوية مغايرة، ولعلنا أشرنا إلى أن

السكاكي قد أثّر في من جاؤوا بعد هو أصبح منهجه شائعا ومتبعا، وتفسير ذلك أن شروحات من جاؤوا بعده لم تكن تخرج عن منهجه وطريقته فكانوا" متأثرين بأصل الكتاب وبمنهج صاحبه كما كان كل منهم متأثرا بثقافته الخاصة وطبيعتها"(33).

المنطق الأرسطي جناية أم فائدة:

تعود بدايات ظهور الفلسفة والمنطق في نقدنا العربي إلى (الجاحظ)صاحب كتاب البيان والتبيين عندما تطرق إلى بعض المسائل البلاغية" ولكن هذه المسحة لم تسيطر سيطرة تامة ولم يظهر أثرها واضحا لأن عصر الجاحظ عصر ازدهر فيه الأدب"(34).

لقد تفاوتت الآراء والمواقف حول ما آلت إليه البلاغة العربية من خلال استثمار التقسيمات والتبويبات المنطقية في مباحث البلاغة، فهذا (أحمد مطلوب) في كتابه دراسات بلاغية ونقدية يرى أن (السكاكي) استطاع أن يهذب مسائل البلاغة ويمحص زبدتها من خلال ترتيب أبوابها، فكان بذلك أول من قسم البلاغة إلى علمين متميزين، الأول يتعلق بالنظم وهو علم المعاني، والثاني يتعلق بالمجاز، والكناية أو بالصورة، وسماه: علم البيان وأنه لم يسمّ القسم الثالث بديعا وإنما هو عنده وجوه مخصوصة كثيرا ما يؤتى بها لقصد تحسين الكلام(35).

وفي إشارة إلى عقم التقسيم الثلاثي للبلاغة والقائم على المعاني والبيان والبديع يرى الأستاذ (أمين الخولي) أن هذا التقسيم لا أساس له ولا غناء فيه لأنه ينبغي أن يشمل البحث البلاغي الكلمة والجملة والفقرة والقطعة، لا البحث في الجملة والجملتين فقط، وأن ما حشدته طريقة العجم وأهل الفلسفة في البلاغة من مقدمات منطقية جديدة لا بد منها لدراسة فنية تقوم على الإحساس بالجمال والتعبير عنه(36).

لقد أفسد المنطق الأرسطي الذوق الأدبي العربي من خلال احتفاء البلاغة العربية بنزعته المعيارية الصارمة وبذلك فقد" تحولت بعد القرن الخامس هجري إلى بلاغة تعليمية بدل الارتقاء بأدواتها في التعامل مع تحليل النص الأدبي وبيان وظيفة العناصر اللغوية في بناءها الخارجي والداخلي"(37).

إن من المهمات التي يضطع بها المنطق أنه يعلمنا طرق التفكير الصحيح من خلال بيان خواص لفكرة الصحيحة في ذاتها دون الاهتمام بالأثر الذي تتركه في نفس السامع، وإن كلاً من النحو والمنطق علم مستقل لا يدخل في صميم البلاغة ولكنه يمهد لها ويسيقها

إلى تحقيق الصحة في العبارة والفكرة بعد ذلك تتقدم البلاغة لتوفير المناسبة أو المطابقة التي هي وظيفة الفن البلاغي الأصيل"(38).

ومن المفاهيم التي داخلت معاني الملكة- في تعريف الفصاحة والبلاغة- إدخال مسائل فلسفية فيها والمتعلقة بالطبيعة والالهية والخلقية كالكلام في الألوان والطعوم والروائح والحواس الإنسانية ومقرها، والوهم ومفاهيم تتعلق بالإيجاب والسلب، وهي لا شك مفاهيم لا علاقة لها بالبلاغة بقدر علاقتها بالعلوم العقلية الأخرى.

ولا شك أن الغاية التعليمية للبلاغة العربية قد فرضت على البلاغيين انتهاج قواعد وقوانين صارمة أقل ما يُقال عنها أنها مجحفة في حق الإبداع والأعمال الأدبية، فعُدّت البلاغة بهذا الشكل معيارية(39).

لقد طغت المعيارية التعليمية على البلاغة العربية وحصرت في الميدان الوظيفي المبني على الإقناع والتأثير، والإقناع يحصل" حين يتهيّأ المستمعون ويستميلهم القول الخطابي حين يشعرون بانفعال ما لأننا لا نقدر الأحكام على نحو واحد حينما نحس باللذة والألم والحب والكراهية"(40).هذا التأثير كان له السبب المباشر في تراجع البلاغة العربية، وما النقص الذي أصبحت تميز به دراسات الفنون الأدبية إلا لنقص في إجراءات البلاغة نتيجة المعيارية والتقعيد الصارمين الذين أصبحا يحكمان مباحث البلاغة.

ولا يمكن بأي حال من الأحول أن نغفل ما للمعتزلة- كفرقة كلامية متأثرة بالمنطق الأرسطي- من أدوار في تطوير البلاغة العربية قد لا تكن حققتها الطوائف الأخرى من لغويين ونحاة، فهذه الطائفة لم تكن محافظة مثل طائفة اللغويين في تحكيم النماذج التقليدية القديمة(41).

ولعل ما بذله رواد المعتزلة من جهود- في مجال الدرس البلاغي- جعل الكثير يرجع البلاغة العربية في أصل نشأتها إلى" تلك الخصومة بين علماء الكلام، وأن الجاحظ المتكلم المعتزلي هو أول من اهتم بالبلاغة اهتماما كبيرا وجديا وأنه مؤسس البيان العربي"(42).

خاتمة:

لقد وُجدت البلاغة العربية في كلام العرب قديما- وفي تعاملاتهم اليومية- بشكل نظري لها، واتسعت محاولة تجريد قواعدها وضبطها من خلال الصيغ والأوزان والتقسيمات وبذلت جهود متنوعة ومختلفة لتدارس مباحثها، وتصدت لذلك فرق وطوائف

مختلفة من العلماء والبلاغيين كُلٌّ في مجاله ومن زاوية نظره الخاصة به كمنتسب لطبقة أو فئة معينة.

وكانت فئة المتكلمين من ابرز الضاربين في أمر تطوير البلاغة العربية وتدارسها بسهم من خلال الاتكاء على رصيدهم العربي تارة، وعلى الرصيد الأجنبي تارة أخرى، ونقصد من ذلك المنطق الأرسطي والفلسفة اليونانية.

ومن خلال ما تم التوصل إليه فلا يمكن أن ننفي ما للمنطق من أثر في بلاغتنا العربية من الناحية الايجابية، كما وله تأثيرات سلبية لا بد من التنبيه عنها:

فمن الناحية الايجابية خدم المنطق الأرسطي البلاغة العربية من خلال:

1/ توفير أداة ناجعة للمتكلمين يُناظرون بها خصومهم في المناظرات والمجادلات.

2/ التمكن من تعلم قوانين الخطابة وتجسد ذلك في صحيفة :(بشر بن المعتمر)، التي يعتبرها (الجاحظ) ضرورة في زمن ما ليتعلم الفتيان الخطابة.

3/ ضبط مباحث البلاغة العربية وتبويبها بطريقة منطقية محكمة، فالشيخ (أمين الخولي) يرى أن تأثر البلاغة العربية بالمنطق كان بعيد المدى في تطويرها وسير دراستها، وفي ضبط أبحاثها وتحديد دائرة درسها.

ومن التأثيرات التي لا يمكن أن تأخذ طابع الايجابية - والتي تأثرت فيها البلاغة بالمنطق -تلك النزعة الجدلية التي سيطرت عليها حتى لتكاد تخرجها تماما عن الغرض الأدبي، ونلمس ذلك من خلال ترتيب الأبواب في المؤلفات.

1/ ابتعاد البلاغة عن اللغة الحية والنصوص الأدبية من خلال إفراغها في تعاريف وقوالب جامدة ولم تعد كما كانت بنت الذوق السليم ونفحة الحس المرهف بالجمال.

2/ إن البلاغة العربية على حد تعبير الدكتور (مازن المبارك) في كتابه الموجز في تاريخ البلاغة: لم توضع في أيدي أمينة خصوصا بعد ذهاب البلغاء الأقحاح فتصدى للبحث في مباحثها علماء ليسوا بلغاء هم أنفسهم فاستعاروا قوالب جافة من المنطق والفلسفة والكلام، فجاءت البلاغة على أيديهم خالية مما كانت به بلاغة. جاءت بلاغة مجردة من أسباب الحياة جافة لا روح فيها، معقدة لا بيان يوضحها.

3/ إن الفلسفة اليونانية لم تُنظّر لتناسب عقليتنا كعرب ومسلمين؛ وإنما هي علوم معارف أنتجها عقل لبيئته وعقليته ونمط تفكيره، ولكن ضرورات المثاقفة فرضت ضرورة

الاطلاع على هذا النتاج الفكري الذي قد يخدم علومنا وعقليتنا، ولكن الفلسفة اليونانية كانت تقترب إلى حد كبير من المنطقية في التفكير لذلك فاستفادتنا منها كانت تخدم فقط جوانب التقنين والضبط والتقسيم، وإلا فأدبنا وبلاغتنا فيهما من روح الجمال وقوة التأثير والذوق ما لا يُضبط بقوانين الفلسفة والمنطق، وإلا فَتُعتَبَرُ سيادة الفلسفة والمنطق على إبداعاتنا قتلا لها وتجفيفا لروح الجمال فيها.

الإحالات:

1 الجاحظ، البيان والتبيين ،ج1،شرح غريب ألفاظه حسن أفندي الماكهاني،المطبعة العلمية،ط1311،1هـ ،ص88.

2/ عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، مؤسسه الرسالة ناشرون، دمشق، سوريا،د. ط ، 2002 ،ص 622

3/ الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ص 110.

4/ ابن خلدون ، المقدمة، مصدر سابق، ص622.

5/ أنظر: البيان والتبيين، مصدر سابق،ص 96.

6/ السيوطي عيسى الحلبي ،حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة،ج1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة،د. ط ، 1968 ، ص190.

7/ خليل ندا، التجديد في علوم البلاغة في العصر الحديث، رسالة لنيل درجة دكتوراه، ص35.

8/ عبد القادر حسن،المختصر في علوم البلاغة،دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة،د. ط ، 2001 ص 12 .

9/ أنظر : أمين الخولي ، فن القول،قدم للطبعة: صلاح فضل، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة،د. ط ،1996، ص92.

10/ أنظر :أمين الخولي،مناهج تجديد البلاغة، دار المعرفة، القاهرة،د. ط ، 1961، ص 125.

11/ يوسف أحمد علي،البلاغة العربية، د . ن ، د. ط ، د . ت ،ص27.

12/ طه إبراهيم،تاريخ النقد الأدبي، دار الحكمة، بيروت،د. ط ، د.ت، ص123.

13/أنظر: المرجع السابق ، ص125.

14/مصطفى عبد الرحمان إبراهيم ،النقد الأدبي القديم عند العرب، مكة للطباعة،د. ط ، 1419-1998، ص109.

15/ فن القول، مرجع سابق، ص13

16/ الزركلي خير الدين، ج2،دار العلم للملايين، ط15، 2002، ص222.

17/ كحالة عمر رضا ،معجم المؤلفين، ج4، مؤسسة الرسالة،ط1، 1414- 1993، ص283.

18/ الحموي ياقوت ، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ج2، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط1،د. ت ، ص863.

19/ ضيف شوقي ،البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف ، القاهرة، ط2، د. ت ، ص287

20/ . أنظر: البلاغة تطور وتاريخ، مرجع سابق، ص288

21/ المرجع السابق، ص288.

22/يوسف بن أبي بكر السكاكي،مفتاح العلوم،ج1، تحقيق نعيم زرزور،ط2، 1407- 1987، ص181.

23/ السبكي بهاء الدين ، عروس الأفراح، مطبعة السعادة، القاهرة،د. ط ، 1342، ص99.

24/ مفتاح العلوم،مرجع سابق، ص164.

25/المرجع السابق،ص162.

26/ القزويني الخطيب، المعاني والبيان والبديع، وضع حواشيه : إبراهيم شمس الدين،د. ط ، د . ت ، ص163.

27/ القزويني،التلخيص في علوم البلاغة، حققه عبد الحميد هنداوي،د. ط ، د . ت ،ص86.

28/ المراغي أحمد مصطفى ، تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، مطبعة الحلبي، القاهرة،د. ط ، 1950، ص27.

29/ البلاغة تطور وتاريخ، مرجع سابق، ص 313

30/ الحموي ياقوت ، معجم الأدباء، ج7، دار المأمون، القاهرة، د. ط ،د. ت ، ص306.

31/ المقدمة ، مصدر سابق، ص520.

32/ البلاغة تطور وتاريخ، مرجع سابق، ص 313.

33/ مبارك مازن،الموجز في تاريخ البلاغة، دار الفكر، بيروت،د. ط ، د.ت، ص111.

34/ مطلوب أحمد دراسات بلاغية ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، دار الرشيد للنشر،د. ط ، د . ت ، ص14.

35/ المرجع السابق، ص42.43.

36/ أنظر فن القول، مرجع سابق، ص 215.220.

37/ فضل صلاح ، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته،ط1، دار الشروق، القاهرة،د. ط ،1998،ص173.174.

38/ الشايب أحمد،الأسلوب،مكتبة النهضة المصرية،ط8، 1411- 1991، ص29.

39/ أنظر:مطلوب أحمد ، مناهج بلاغية، ص34.

40/ أرسطو، فن الخطابة، ترجمة: قنيني عبد القادر، افريقيا الشرق الدار البيضاء، ط2008،1،ص61.

41/ أنظر:الكواز، البلاغة النقد المصطلح النشأة والتجديد، الانتشار العربي، بيروت، لبنان،ط2006،1،ص178.

42/ حسين طه ، تمهيد في البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر ضمن(نقد الشعر)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د. ط ، 1938، ص67.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊